

# عن الصهيونية ونزعة التفوق العرقي اليهودي

من أجل عملية سلام حقيقية

. جوزيف مسعود .

## براغمانية أم عرقية؟

هل مسألة عودة اللاجئين الفلسطينيين غير عملية لأن إسرائيل أصغر من أن تحتل ذلك من الناحية الديموغرافية؟ لا يبدو واقع الأمر على هذا النحو، ذلك لأن إسرائيل تواصلت تسويق نفسها بوصفها مالأً أخيراً لملايين من يهود الشتات في الأمريكيتين وفي روسيا، الذين كان اهتمامهم بالهجرة إلى فلسطين - برغم الجهود الصهيونية الحديثة - فائراً (باستثناء أولئك الذين هاجروا من روسيا بين عامي ١٩٩٠ و٢٠٠٠، والكثير منهم لم يكونوا يهوداً على الإطلاق كما اتضح).

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠١، وفي الوقت الذي كان الجيش الإسرائيلي يواصل فيه قتل المقاومين الفلسطينيين في الأراضي المحتلة وقصفهم واغتيالهم، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون يتعهد بجلب مليون يهودي إضافي إلى إسرائيل. وقيل إن شارون قد يختار، مع قرب نُصوب بئر اليهود الروس، أن يشجع نصف مليون يهودي أرجنتيني على المجيء والاستيطان في الدولة اليهودية، بعد أن أثر اليهود الأميركيون بغالبيتهم الساحقة أن لا يحظوا بنعمة «الخلاص» في إسرائيل بل أن يعوضوا للإسرائيليين اليهود عن ذلك

النحو التالي: ليس من البراغمانية (العملانية) إعطاء اللاجئين حق العودة؛ ولا إعادة ممتلكاتهم إليهم؛ ولا تفكيك المستوطنات في الأراضي المحتلة؛ ولا إعادة المناطق المحتلة إلى السيطرة الفلسطينية؛ ولا إنهاء جوانب الاحتلال الإسرائيلي كإقامة. علاوة على ذلك تمّ الجهرُ دوماً بأن تحويل إسرائيل إلى دولة غير يهودية (اقرأ: غير عنصرية) ليس هو الآخر أمراً براغمانياً، علماً أن الهوية اليهودية لإسرائيل لم تكن يوماً جزءاً من المفاوضات الجارية.

وفي المقابل شددت حجج هذا الخطاب على الأمور «البراغمانية» التالية: سيكون براغمانياً أن يتخلى الفلسطينيون عن حق العودة؛ وأن يقبلوا العيش في دولة تتسم بنزعة التفوق اليهودي كمواطنين من الدرجة الثالثة؛ وأن يعيشوا في بانتوستانات (معازل) يحاصرها الإسرائيليون ويتحكمون بها بدلاً من أن يختاروا الاستقلال؛ وأن تبقى إسرائيل دولةً تسود فيها نزعة التفوق العرقي اليهودي. وعليه، فإن تحديد المعايير التي يُحكم فيها على هذه الحلول بالعملانية أو اللاعملانية هو السؤال الذي مافتى يطرح نفسه بالحاح.

لا جدال بعد اليوم، حتى في أوساط كثير من الإسرائيليين، في أن وقع الصهيونية على الشعب الفلسطيني خلال الأعوام المئة الأخيرة يشمل: طرد غالبية الفلسطينيين من أراضيهم وبيوتهم، ومن ثم مصادرة ممتلكاتهم لصالح اليهود حصراً، ومنع اللاجئين من العودة. كما يشمل فرض نظام أبارتيد عسكري على الفلسطينيين الباقين داخل حدود ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٦، حين تحول بعد هذا التاريخ إلى نظام تمييز مدني يُسم بنزعة التفوق العرقي اليهودي. وهو يشمل أيضاً إخضاع الضفة الغربية وقطاع غزة وساكينيهما لاحتلال عسكري ولنظام أبارتيد طوال الأعوام الخمسة والثلاثين الأخيرة، ولاستعمار متواصل لهذه الأراضي المحتلة. فهل يمكن إيجاد حل للصراع الذي جاءت به الصهيونية من أوروبا وفرضته على شعب غالبيتته من الفلاحين؟

منذ أن بدأت «العملية السلمية» في أوسلو عام ١٩٩٣ ما انفكت معظم السجلات في الخطاب الرسمي الإسرائيلي والأميركي والفلسطيني الدائرة حول كيفية «إنهاء» الصراع بين الصهيونية والفلسطينيين تشدد على مسألة البراغمانية في مواجهة المثالية. وجاء منطلق هذا الخطاب على

❖ - أستاذ العلوم السياسية في جامعة كولومبيا في نيويورك. كتابه آثار استعمارية؛ إنشاء الهوية الوطنية في الأردن نُشر بالإنكليزية عام ٢٠٠١.

بأن يقدموا من «منفاهم» الأميركي دعماً مادياً وسياسياً لدولة الأپارتايد اليهودية<sup>(١)</sup>. فمن اليقين، إذن، أن إسرائيل التي تستطيع أن تستوعب في حدودها الضيقة ملايين إضافيين من اليهود تستطيع أن تفعل الأمر نفسه باللاجئين الفلسطينيين الذين طردتهم من أرضهم التي تدعو أولئك اليهود الجدد إلى استيطانها!

ولكن كل الحلول التي قدمها الفلسطينيون واليهود الإسرائيليون، الرسميون وغير الرسميين، لعلاج «مشكلة» اللاجئين يبدو أنها تتفق على لاعملانية عودة اللاجئين إلى أراضيهم. وتشمل الأمثلة الحديثة على مثل هذه الاقتراحات كتاب دونا أرزت من **لاجئين إلى مواطنين: الفلسطينيون ونهاية الصراع العربي - الإسرائيلي**؛ والاقتراح الذي قدمه

«برنامج جامعة هارفرد عن تحليل الصراع الدولي وحله»، وقد ناقشه فريق من الفلسطينيين والإسرائيليين، وكتبه كل من خليل شقافي وجوزيف ألفر<sup>(٢)</sup>. فالعرضة للخطر بالنسبة إلى واضعي هذه الاقتراحات وكثير غيرهم إنما هي محافظة إسرائيل على تفوقها العرقي اليهودي (الملقب بـ «هويتها اليهودية»). بل إن ياسر عرفات نفسه، وفي محاولاته المتواصلة للحفاظ على سلطته على حساب أرواح شعبه وحقوقهم، فوض في تشرين الثاني (نوفمبر) واحداً من موظفيه هو سري نسيبه، ممثل السلطة الفلسطينية في القدس الشرقية، بالتخلي عن حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة. وقد أكد نسيبه أيضاً، أمام فريق من أعضاء الكنيست الإسرائيلي يمثلون حزب ميريتز اليساري، ما يلي: «إذا أراد الفلسطينيون حلاً، فإن

علينا أن نأخذ رفض إسرائيل [السماح للفلسطينيين بالعودة] في الاعتبار». وهذا تنازل سارع أعضاء الكنيست إلى الترحيب به وعدوه جديراً بـ «الدرس»<sup>(٣)</sup> ورحبت صحيفة هارتس الليبرالية الإسرائيلية بهذا التنازل فوراً، كما فعل واحد من صحفييها الرئيسيين هو داني روبنشتاين (الذي يُعتبر عادة متعاطفاً مع الفلسطينيين)، ولكنه أسف لأن لا يكون نسيبه ممثلاً لغالبية الرأي العام الفلسطيني<sup>(٤)</sup>. غير أن شيئاً من هذا لم يُعكس على المستوى الرسمي الإسرائيلي. وقلق عرفات من أن لا تتعامل إسرائيل جدياً مع تنازل نسيبه، فعبر بنفسه صراحة عن «تفهّمه» و«احترامه» لحاجة إسرائيل إلى الحفاظ على نزعة تفوقها العرقية اليهودية، وذلك في مقالة نشرها في جريدة نيويورك تايمز. في هذه

١ - Emma Brockes and Ewen MacAskill, "Sharon Wants 1m New Jews for Israel," The Guardian, November 7, 2001.

٢ - Donna E. Arzot, Refugees into Citizens, Palestinians and the End of the Arab-Israeli Conflict (New York: Council on Foreign Relations, 1997); and Joseph Alpher and Khalil Shikaki, "The Palestinian Refugee Problem and the Right of Return," Working Paper Series, No. 98-7, Weatherhead Center for International Affairs, Harvard University, May 1998.

وحده نبيل قسيس لم يشارك في الصياغة النهائية للتقرير، من بين أفراد الفريق الفلسطيني الذي ضمّ (بالإضافة إلى خليل شقافي) براغماطين فلسطينيين آخرين وهم: غسان الخطيب، وإبراهيم دقاق، ويزيد صايغ، ونديم روحانا، ونبيل قسيس (أنظر صفحة X). ومن بين المشاركين الإسرائيليين واليهود الأميركيين: جوزيف ألفر، وغابرييل بن دور، ويوسي كاتز، وموشي ماعوز، وذييف شيف، وشيمون شامير، وهربرت كلّمان.

٣ - أسعد تلحمي، «فلسطينيون يتهمون السلطة بإطلاق بالون اختبار بشأن قضية اللاجئين، وإسرائيليون يرحّبون بالواقعية»، جريدة الحياة ١٦ تشرين الثاني، ٢٠٠١، ص ٨.

٤ - المصدر السابق.

المقالة يؤكد عرفات، دونما خجل: «أنا نتفهم مخاوف إسرائيل الديموغرافية، ونتفهم أن على حق عودة اللاجئين الفلسطينيين، الذي كفله القانون الدولي وقرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤، أن يطبق بطريقة تأخذ هذه المخاوف في الاعتبار»<sup>(١)</sup> ومضى عرفات يقول إنه يتطلع إلى التفاوض مع إسرائيل حول «حلول خلاقة لمأساة اللاجئين مع احترام مخاوف إسرائيل الديموغرافية»، أي بالأحرى «احترام» مخاوفها التفوقية العرقية اليهودية. غير أن ما يجعل عودة اللاجئين الفلسطينيين الذين طردتهم إسرائيل، وسرقت وماتزال تسرق أراضيهم، أمراً غير عملي ليس في الواقع اعتبارات جغرافية أو «ديموغرافية» ولا عوائق بيئية أو لوجيستية، وإنما كونهم غير يهود.<sup>(٢)</sup>

كما يُماري البعض في أنه لا يمكن لإسرائيل أن تكون دولة لكل مواطنيها لأن هذا يعني أنها لن تستطيع أن تبقى دولة يهودية بل ستصبح دولة إسرائيلية. والحق أن الكلام العنصري عن «الخطر» الديموغرافي الذي يشكله الفلسطينيون

على إسرائيل يهودية عرقية متفوقة لا يُنحصر فقط بآرييل شارون وباليمين اليهودي الإسرائيلي (الذي يشكل في كل حال غالبية في إسرائيل اليهودية) بل يطول اليهود الإسرائيليين الليبراليين واليساريين أيضاً. ففي كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٠، عقّد «معهد السياسة والإستراتيجية في مركز هرزليا المتداخل المناهج» في إسرائيل مؤتمره الأول ضمن ما سيكون سلسلة من المؤتمرات السنوية التي تُعنى بقوة إسرائيل وأمنها، ولاسيما في ما يخص الحفاظ على هوية إسرائيل المتسمة بالنزعة التفوقية العرقية اليهودية. وكانت واحدة من «النقاط الأساسية» في التقرير الذي صدر عن هذا المؤتمر هي القلق من ضخامة أعداد اليهود الواجب وجودهم للمحافظة على تلك النزعة في إسرائيل: «إن معدل الولادة العالي [للعرب داخل حدود ١٩٤٨] يطرح السؤال عن مستقبل إسرائيل كدولة يهودية... وأمام إسرائيل إستراتيجيتان بديلتان: التكيّف أو الاستيعاب. الاستراتيجية الأخيرة تتطلب سياسة

ديموغرافية صهيونية حيوية بعيدة المدى تضمّن آثارها السياسية والاقتصادية والتربوية الطبيعية اليهودية لإسرائيل»<sup>(٣)</sup> ويضيف التقرير بنبرة تأكيدية أن «أولئك الذين يدعون الحفاظ على هوية إسرائيل... بوصفها دولة يهودية للأمة اليهودية... يشكّلون غالبية بين السكان اليهود في إسرائيل».

لم يكن المؤتمر المذكور جهداً فردياً: فرئيس إسرائيل نفسه، موشيه كاتساف، هو من رحّب بالحضور. وشارك في رعاية هذا المؤتمر كل من اللجنة الأميركية اليهودية، ومركز إسرائيل للنمو الاجتماعي والاقتصادي، ووزارة الدفاع الإسرائيلية، والوكالة اليهودية، والمنظمة الصهيونية العالمية، ومعهد الأمن القومي في جامعة حيفا، ومجلس الأمن القومي الإسرائيلي التابع لمكتب رئيس الوزراء. وقدم المؤتمر خمسين متحدثاً، بمن فيهم مسؤولون حكوميون وعسكريون رفيعو المستوى، ورؤساء وزارة سابقون ولاحقون، وأساتذة جامعات، وشخصيات من عالم المال والإعلام، علاوة على

١ - Yasser Arafat, "The Palestinian Vision of Peace," New York Times, 3 February, 2002.

٢ - للتوسع في معرفة كل الحلول المقترحة لمشكلة اللاجئين انظر: Joseph Massad, "Return of Permanent Exile," in Naseer Aruri, ed., Palestinian Refugees and the Right of Return (London: Pluto Press, 2001).

٣ - لمقاطع مختارة من تقرير المؤتمر، انظر: "The Herzlia Conference on the Balance of National Strength and Security in Israel," in Journal of Palestine Studies, No. 121, Autumn 2001, p. 50-61.

أكاديميين أميركيين يهود وعناصر مؤثرة في اللوبي الصهيوني الأميركي.

لم تكن نتائج بحث هذا المؤتمر ولا التزاماته ظاهرة جديدة في الفكر الصهيوني على الإطلاق. ذلك أن الحرص على التفوق الديموغرافي اليهودي قديم قديم الحركة الصهيونية نفسها. فقد كان مؤسس هذه الحركة، ثيودور هرتزل، هو من فهم أن على اليهود الأوروبيين أن يشكّلوا أغلبية إثنية - عرقية عبر تفوق ديموغرافي. إذ أكد بهدوء ووقار أن «تسلل [اليهود] محكوم بنهاية سيئة. فهو سيتواصل حتى بلوغ اللحظة المحتومة، حين يشعر السكان الأصليون أنهم مهددون فيجبرون الحكومة على وقف تدفق يهود جدد. إن الهجرة، تبعاً لذلك، لا جدوى لها إلا إذا كان لنا الحق المطلق في مواصلة مثل هذه الهجرة»<sup>(١)</sup> ولتحقيق هذا ينبغي على المستوطنين اليهود أن يصادروا «بلطف» ممتلكات السكان الأصليين وأن يحاولوا أن يحملوا السكان المعدومين على مغادرة الحدود وذلك بأن

يدبروا لهم وظائف في بلدان الجوار، وأن يجرموهم في الوقت نفسه من أي وظيفة في بلادنا نحن... وعلى عملية المصادرة وعملية إزاحة الفقراء أن تجرّياً بتكثّم وحذر... فليتوهم أصحاب الممتلكات غير المنقولة أنهم يغشوننا ببيعهم إيانا أشياء أعلى بكثير من قيمتها الفعلية. غير أننا لن نعود ونبيعهم شيئاً منها»<sup>(٢)</sup>

ولكن قبل إخراج السكان الأصليين من بلادهم سيحتاج إليهم للقيام ببعض المهام الضرورية: «إذا انتقلنا إلى منطقة فيها حيوانات متوحشة لم يعتدّها اليهود - كالأفاعي الضخمة وما إلى هنالك - فسأستخدم السكان الأصليين، قبل أن أعطيهم وظائف في دول الجوار، من أجل إيادة هذه الحيوانات». وسيقدم اليهود «مكافآت ثمينة مقابل جلود الأفاعي، وغير ذلك، ومقابل بيضها أيضاً»<sup>(٣)</sup> غير أن هذه الخطة لم تتم بالتكثّم والحذر اللذين أمل بهما هرتزل. بل إن جزءاً من «غزوهم لسوق العمل» الذي كان يفترض بموجبه أن يعمل اليهود وحدهم في الأرض

«اليهودية»، تبدى في حادثة شهيرة. فحين اكتشف المستعمرون الصهاينة عام ١٩٠٨ أن شجيرات إحدى الغابات، التي أنشئت في منطقة بن شيمون قرب اللد إحياءً لذكرى ثيودور هرتزل، كان العرب هم من زرعوها، قاموا باستئصالها ثم أعادوا زرعها من جديد.<sup>(٤)</sup>

وحقيقة الأمر أن الحرص على التفوق العرقي اليهودي في إسرائيل ساند في جميع المناحي، بحيث نشرت الجريدة الإسرائيلية الروسية البارزة **نوفوستي** في كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٠ مقالة بقلم إحدى صحافياتها البارزات، وهي ماريان بيلنكي، بعنوان «كيف نجبرهم على الرحيل»، وفيها اقترحت أن تهدد الحكومة الإسرائيلية بحصّي العرب من أجل دفعهم إلى مغادرة البلاد. وبحسب الجريدة الإسرائيلية **هارتس** فإن المؤلف اقترحت أيضاً: «أن تطبق الطريقة الصينية لخفض معدلات الولادة على السكان العرب في إسرائيل من أجل خفض معدلات ولادتهم هم أيضاً. وبحسب هذه الطريقة يُحرم

١ - Theodor Herzl, *The Jewish State* (New York: Dover Publications, 1988), p. 95.

٢ - Theodor Herzl, *The Complete Diaries of Theodor Herzl*, edited by Raphael Patai, and translated by Harry Zohn, Volume I (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), p. 88.

٣ - *Ibid.*, p. 98.

٤ - See David Hirst, *The Gun and the Olive Branch, The Roots of Violence in the Middle East* (London: Faber and Faber, 1984), p. 25.

الأشخاص الذين لهم أكثر من ولد من فوائد مختلفة، ويحسرون وظائفهم، ويسلط عليهم خطر النفي. كما سيتم تقديم مكافآت نقدية للشبان الذين يوافقون طوعاً على أن يُخصَّصوا...»

لاحقاً قال محررُ الجريدة إنَّ نشر هذه المقالة كان «خطأً فادحاً»، وفصلَ المحررَ المسؤولَ عن نشرها مدة ثلاثة شهور. غير أن هارتس استغربت ألا تتلقَّى الجريدة «أي ردود من القراء أو من الممثلين العلنيين للجالية الروسية في إسرائيل»<sup>(١)</sup> ولكنَّ المستغرب هو أن تستغرب هارتس من هذه الظاهرة على الإطلاق. فوزيرُ السياحة بني ألون (من حزب موليديت)، الذي حلَّ مؤخرًا محلَّ الوزير الإسرائيلي رجبعم زئيفي الذي اغتيل، اقترح - شأن سلفه - في ١ شباط (فبراير) ٢٠٠٢ أن يُطرد جميعُ المواطنين العرب من إسرائيل.<sup>(٢)</sup>

وبالإضافة إلى الفلسطينيين الذين فهموا الصهيونية على ما هي عليه حقاً

وقاوموها منذ نشأتها في نهاية القرن التاسع عشر،<sup>(٣)</sup> ثمة عدد كبير من اليهود الذين رفضوا الحركة الصهيونية لرفضهم خططها المدَّة لليهود وللفلسطينيين أيضاً. ففي زمن مبكر يعود إلى عام ١٩١٩ قدَّم جوليوس كان، وهو عضوٌ يهوديٌّ في الكونغرس عن ولاية سان فرانسيسكو، بياناً إلى الرئيس ويلسون، صدَّق عليه ٢٩٩ يهودياً، حاخاماتٍ وعلمانيين. وقد رَفَضَت الوثيقة، التي دانت الصهاينة لمحاولتهم فصلَ اليهود عن الأغيار ولقلب مجرى التاريخ السائر باتجاه التحرر، قيامَ دولةٍ في فلسطين تقتصر على اليهود لكون هذا نقيضاً لـ «مبادئ الديمقراطية»<sup>(٤)</sup> والحقَّ أنَّ هناك عدداً من اليهود الأميركيين البارزين لم يتوقفوا عن الإحساس بالرعب حيال المخطط الصهيوني على امتداد أربعينيات القرن العشرين. فجايوس ن. روزنبرغ من اللجنة الأميركية اليهودية دان المخططات الصهيونية لإقامة دولة يهودية صرف على

اعتبار ذلك عملاً غير ديمقراطي. وفي مقالة مثيرة ظهرت لاحقاً في الصحافة الأميركية وتُدحض الحجج الصهيونية، اعترض روزنبرغ على إلغاء حقوق غير اليهود نتيجة لإنشاء دولة تتسم بنزعة التفوق العرقي اليهودي.<sup>(٥)</sup> وبسبب السياسات الصهيونية في إسكات أي نقدٍ يهودي داخل المنظمات اليهودية الأميركية، وفي تهديد أعضائها في «المؤتمر المركزي للحاخامات الأميركيين» في حزيران (يونيو) ١٩٤٣، تحوَّفت الحاخام الإصلاحي لُوي والزي (المعادي للصهيونية عداءً ضارياً) من أن يكون الحاخام الصهيوني الأمريكي ستيفان وايز «قد كَشَفَ، بالطغيان الذي مارسه على الحاخامات الذين لم يمتثلوا للإجماع، ما قد يفعله الصهاينة بالعرب»<sup>(٦)</sup> هذا وقد واصل الأميركيون اليهود المعادون للصهيونية حتى حلول عام ١٩٤٨ عداهم للمخططات العرقية التفوقية اليهودية التي وضعتها

١ - Lily Galili, Ha'Aretz, January 28, 2002.

٢ - انظر «خليفة زئيفي يدعو لترحيل الفلسطينيين»، في جريدة الحياة، ٢ شباط، ٢٠٠٢، ص ٤.

٣ - عن المقاومة الفلسطينية انظر: Rashid Khalidi, *Palestinian Identity, The Construction of Modern National Consciousness* (New York: Columbia University Press, 1997), and David Hirst, *op. cit.*

٤ - "Protest to Wilson Against Zionist State," *New York Times*, 5 March 1919, p. 7, cited in Thomas Kolsky, *Jews Against Zionism, The American Council For Judaism, 1942-1948* (Philadelphia: Temple University Press, 1990), p. 31.

٥ - *Ibid.*, p. 41.

٦ - *Ibid.*, p. 73.

الصهيونية، وبعد ذلك التاريخ تقلص أكثرُ الدعم الذي كانوا قد تلقوه في العقود السابقة أمام حقيقة المذابح النازية (المحرقة) وقيام الدولة ذات النزعة العرقية اليهودية في فلسطين.

أما القوانين التي تحمي التفوق العرقي اليهودي في إسرائيل، فهي قانون العودة (١٩٥٠)، وقانون المواطنة (١٩٥٢)، وقانون الوضع الشرعي (١٩٥٢)، وقانون الممتلكات المتغيبية (١٩٥٠)، وقانون ممتلكات الدولة (١٩٥٨)، وقانون إدارة الأراضي في إسرائيل (١٩٦٠)، وقانون الإنشاء والبناء (١٩٦٥)، وقوانين أخرى لا تُحصى، فضلاً عن الرمزية اليهودية الحصرية التي تستعرضها إسرائيل والتي تمتد من علمها اليهودي ونشيدها الوطني (الذي لا يُخاطب إلا اليهود) إلى أعيادها الوطنية والممارسات التمييزية المُأسسة ضد مواطنيها العرب غير اليهود في كل

جانب من جوانب الحياة. وبالإضافة إلى كل هذا يواصل المجتمع اليهودي في إسرائيل والقيادات اليهودية اعتبار نزعة التفوق العرقي اليهودي أمراً بالغ التقديس وغير قابل للتفاوض.<sup>(١)</sup> فمؤخراً عبّر شيمون بيريز، وهو من «حمائم» إسرائيل الرسمية، عن قلقه حيال «الخطر» الديموغرافي الفلسطيني لكون الخط الأخضر الفاصل بين إسرائيل والضفة الغربية قد بدأ «يختفي... الأمر الذي قد يؤدي إلى ربط مصائر فلسطيني الضفة الغربية بالاسرائيليين العرب». وأمل أن يؤجل وصول مئة ألف يهودي إلى إسرائيل من هذا «الخطر» الديموغرافي عشر سنوات قادمة لأن «الديموغرافيا ستتهزم الجغرافيا» في نهاية المطاف.<sup>(٢)</sup> والحق أن ثمة القليل جداً مما يمكن تمييزه بين توجهات كل من بيريز وشارون من جهة بخصوص هذه النزعة، وتوجهات غولدا

مائير من جهة ثانية وهي التي لم يكن باستطاعتها النوم في أوائل السبعينيات بسبب رعبها من أعداد الفلسطينيين الذين يُولدون ويحملون كل ليلة!<sup>(٣)</sup>

وتمضي الحجج الإسرائيلية إلى القول إنه ليس بمقدور إسرائيل إنهاء احتلال الضفة الغربية وغزة لأن عليها حماية المستوطنين اليهود هناك، ومواصلة سيطرتها التامة على المياه الفلسطينية من أجل استخدام اليهود لها، وضمان أمن إسرائيل كدولة يهودية من التهديدات التي قد تأتي من دولة فلسطينية مستقلة على الضفة الغربية وغزة. وقد كان هذا الخطاب ركيزة أساسية لـ «العملية السلمية»، التي بدأت في مدريد عام ١٩٩١ وتوجت بعملية أوسلو عام ١٩٩٣، وركيزة أساسية أيضاً للنتائج الكارثية التي ظل الفلسطينيون يخضعون لها طوال السنوات العشر الأخيرة من مفاوضات «السلام».<sup>(٤)</sup>

١ - عن قوانين إسرائيل العنصرية ومعاملتها لمواطنيها العرب الفلسطينيين، انظر: Shabi Jiryis, *The Arabs in Israel* (New York: Monthly Review Press, 1976), and Ian Lustick, *Arabs in the Jewish State, Israel's Control of a National Minority* (Austin: University of Texas Press, 1980).

٢ - الحياة، ٢٤ آب، ٢٠٠١، ص ٣. «بيريز يحذر من الخطر الديموغرافي الفلسطيني ويشن هجوماً حاداً على النواب العرب في الكنيست».

٣ - David Hirst, op. cit., p. 242-243.

٤ - عن الخطاب «البراغماتي» الذي تبناه المثقفون الفلسطينيون أنفسهم بعد أوسلو، انظر: Joseph Massad, "Political Realists or Comprador Intelligentsia: Palestinian Intellectuals and the National Struggle," *Critique*, Fall 1997.

وقد نشر هذا المقال في العربية تحت عنوان «ساسة واقعيون أم مثقفون كمبرادوريون: المثقفون الفلسطينيون والصراع الوطني»، في مجلة كنعان، رقم ١٥، ١٩٩٧.

### الصهيونية واللاسامية

استعارت نزعة التفوق العرقي اليهودي في الفكر الصهيوني، منذ ولادتها، الكثير من الخطاب المعادي للسامية. فهرتزل مثلاً لم يكتف بموافقة المعادين للسامية على أن اليهود هم من «سببوا» العدا للسامية - بقوله «حيث لا توجد [اللاسامية] فإن اليهود يحملونها في سياق هجراتهم... إن اليهود البائسين يحملون إلى انكلترا الآن بذور العدا للسامية، وكانوا قد أدخلوها قبلاً إلى أميركا»<sup>(١)</sup> - بل يتفق معهم أيضاً في أن نهاية العدا للسامية لا يكون إلا بإخراج اليهود من المجتمعات غير اليهودية (ومن هنا توقع هرتزل الصائب بأن المعادين للسامية سيهبون فوراً إلى دعم الصهاينة، وهو ما فعلوه حقاً)<sup>(٢)</sup>. وها هم اليهود الإسرائيليون التفوقيون يحسون الأفكار المعادية للسامية التي انتشرت عند منعطف القرن وأتهم اليهود بالسعي إلى السيطرة على العالم. ومن كتاب **بروتوكولات حكماء صهيون** السيئ الصيت الذي صدر زمن قيصر روسيا، إلى الدعاية النازية الإبادية، كان مفهوم اليهود كشعب «متعطش إلى القوة» جزءاً لا

يتجزأ من مُعْجَم الحقد المعادي للسامية. واليوم يبدو أن اليهود الإسرائيليين التفوقيين يتفقون مع المعادين للسامية في أنه لو صح أن اليهود لا يسيطرون على العالم فهم يسيطرون على أميركا على الأقل. ففي أيلول (سبتمبر) ١٩٩٤، نشرت الجريدة الإسرائيلية **معاريف** تقريراً عن «اليهود الذين يديرون حكومة كلينتون»، ولاحظت نمواً في «القوة اليهودية» داخل حكومة الولايات المتحدة منذ سنوات حكم الرئيس ريغان. ومع أن الجريدة أكدت أن اليهود الأميركيين كانوا يتمتعون بمواقع أساسية في ما يخص سياسة الولايات المتحدة إزاء الشرق الأوسط قبل قدوم كلينتون، فإن «القوة اليهودية» توسعت بشكل ملحوظ أثناء إدارة هذا الأخير. إذ علاوة على نائب مستشار الأمن القومي صموئيل برغر، ومستشار نائب الرئيس للأمن القومي ليون برث، ثمة «٧ من أصل ١١ من أعضاء مجلس الأمن القومي يهود». وقد وضعهم كلينتون خصيصاً في أكثر المفاصل الحساسة في الإدارات الأمنية والخارجية الأميركية. وتُعلن المقالة بفخر كيف أن اليهود الأميركيين يغتلبون قمة

المناصب التي تتولى سياسة الولايات المتحدة لا في الشرق الأوسط وحده بل في أفريقيا وجنوبي آسيا وأوروبا الغربية وأميركا اللاتينية أيضاً. وتزود المقالة قراءها بنبذة عن عدد كبير ممن يسمون «اليهود الدافئين»، أي اليهود الذين يتماهون مع المصالح اليهودية المعرفة بأنها مصالح إسرائيلية. ولكي لا نظن أن هذه «القوة اليهودية» المزعومة مقتصرة على الحزب الديموقراطي وحده، فإن المقالة تُشرح «أن هناك الكثير من اليهود الدافئين الذين يتجهون إلى تولي مناصب عليا في الحزب الجمهوري أيضاً». وتورد المقالة أن حاكماً مقره في واشنطن دي سي يؤكد «أننا للمرة الأولى في التاريخ الأميركي... لا نشعر أننا نعيش في الشتات. فلم يعد للولايات المتحدة حكومة من الأغيار (الغوييم)، بل باتت لها إدارة، اليهود فيها شركاء كاملون في صناعة القرار على المستويات كافة...»<sup>(٣)</sup> وقد تملك كاتب المقالة اليهودي الإسرائيلي إعجاباً شديداً بمدى «يهودية» الحكومة الأميركية في زمنه، إلى حد أنه حين أنصل هاتفياً بوزارة الخارجية ليطلب موجهراً من

١ - Theodor Herzl, *The Jewish State*, op. cit., p. 75.

٢ - *Ibid.*, p. 93.

٣ - Avinoam Bar-Yosef, "The Jews who Run Clinton's Cabinet," *Ma'ariv*, 2 September 1994. Reproduced in *Journal of*

*Palestine Studies*, no. 94, (Winter 1995), p. 148-151.

الشخص المعني عن أزمة هايتي في ذلك الوقت أحالوه «على يهودا ميرسكي. فعرفتُ عن نفسي أمام سكرتيره. فجاءةً التقطَ أحدهم سماعةً الهاتف، ثم سمعتُ صوتاً يقول بلهجةٍ عبريةٍ إسرائيليةٍ مُنقنة: 'صباح الخير. كيف أستطيع أن أساعدك؟ لوهلةٍ ظننتُ أنني اتصلتُ خطأً بوزارة الخارجية الإسرائيلية!'

كما نذكر الردود المتبادلة التي جرت في نهاية أيلول (سبتمبر) عام ٢٠٠١ أثناء نقاشٍ لاذع اندلع في أحد الاجتماعات الأسبوعية للحكومة الإسرائيلية بين رئيس الوزراء أرييل شارون ووزير خارجيته شيمون بيريز. فقد كان بيريز يحذّر شارون من أن رفضه الانتفاسات إلى المطالب الأميركية بوقف إطلاق النار قد يعرّض المصالح الإسرائيلية للخطر ف «يُقلّبُ الولايات المتحدة ضدنا». هنا صرّح شارون على بيريز بعد أن نفّذ صبره: «كلّ مرةً نفعلُ شيئاً تقول لي إنَّ

الأميركيين سيفعلون كذا وكذا. أريد أن أخبرك شيئاً بوضوح شديد: لا تقلقُ بشأن الضغط الأميركي على إسرائيل. فنحن، الشعب اليهودي، نسيطر على أميركا، والأميركيون يعرفون هذا.»<sup>(١)</sup>

هذا التلاقي الإيديولوجي الكبير بين المعادين للسامية واليهود التفوقيين في إسرائيل لا يدعوا إلى العجب كثيراً إذا فهمنا أن المشروع الصهيوني لا يقصر عن أن يكون تحويلاً لليهودي إلى لاسامي.<sup>(٢)</sup> من اليقين أنه لم يكن لزعيم أميركي يهودي أو لجريدة أميركية محترمة، يهودية أو غير يهودية، أن ينشرا مقالةً معاديةً للسامية من عيار مقالة **معاريف** المذكورة أعلاه. غير أن هذا لا يعني أن قادة اللوبي المؤيد لإسرائيل في الولايات المتحدة لا ينفكون عن التباهي بتأثيرهم الحاسم على السياسة الأميركية في الكونغرس والبيت الأبيض. وهذا ما فعلوه بشكلٍ منتظمٍ منذ

نهاية السبعينيات.<sup>(٣)</sup> ولكن ما تغفله هذه المفهومات المعادية للسامية هو أن «اللوبي اليهودي» ليس جباراً في الولايات المتحدة إلا لأن دعاواه الأساسية تدور حول دفع مصالح الولايات المتحدة قُدماً، ولأن دعم تلك الدعاوى لإسرائيل تأتي في سياق دعمها للإستراتيجية الأميركية الشاملة في الشرق الأوسط. وبهذا يؤدي «اللوبي اليهودي» الدور الذي سبق للوبي الصيني أن أداه في الخمسينيات من القرن العشرين، وما زال اللوبي الكوبي يؤديه حتى اليوم. وحقيقة أن اللوبي اليهودي أعنتى من أي لوبي آخر في واشنطن إنما تشهد على أهمية إسرائيل في الإستراتيجية الأميركية، لا على وجود «قوة» يهودية مزعومة مستقلةً وغريبةً عن «المصالح القومية» الأميركية. حين يقبل التفوقيون الإسرائيليون توصيفات اليهود المعادية للسامية والمنافية

١ - Radio Israel "Kol Yisrael," 3 October 2001; the Independent Palestinian Information Network, 4 October 2001.

٢ - عن تواطؤ الصهيونية مع اللاسامية، واستخدامها اللاساميين نموذجاً، انظر: Michael Selzer, *The Aryanization of the Jewish State* (New York: Black Star, 1967). Also see Joseph Massad, "The 'Post-Colonial' Colony, Time, Space and Bodies in Palestine/Israel," in *The Pre-Occupation of Post-Colonial Studies*, edited by Fawzia Afzal-Khan and Kalpana Seshadri-Crooks (North Carolina: Duke University Press, 2000).

٣ - عن اللوبي المؤيد لإسرائيل في الولايات المتحدة، انظر: Paul Firdley, *They Dare to Speak Out: People and Institutions Confront Israel's Lobby* (New York: Lawrence Hill and Company, 1985), and Edward Tivnan, *The Lobby: Jewish Political Power and American Foreign Policy* (New York: Touchstone Books, 1988).

للعقل والقائلة بأنَّ اليهود «يَتَحَكَّمونَ بالعالم»، فإنَّهم يُحَفِّقونَ في أن يروا أنَّ المدى البعيد الذي بلغه الأميركيُّونَ اليهودُ في أن يتمتَّلوا في الحكومة الأميركيَّة إنَّما هو المدى الذي تمَّ استيعابُهم فيه ليكونوا جزءًا من طبقة أميركيَّة بيضاء، ويُحَفِّقونَ أيضًا في أن يروا إلى أيِّ حدِّ تمَّ دَمَجُ يهوديَّتهم - سواء أكانت «دافئة» أم باردة - في الهوية الأميركيَّة (١) فالحقُّ أنَّ اليهود الأميركيَّين الذين يَعْمَلونَ في الحكومة الأميركيَّة ليسوا أكثرَ تأييدًا لإسرائيل من نظرائهم المسيحيِّين؛ ولكنَّ حَدَثَ أنَّهم أكثرُ منهم تأييدًا لإسرائيلَ فذلك يعود بالأحرى إلى إيمانهم بأنَّ دَعْمَ إسرائيل يُندرج في خدمة مصالح أميركا العليا. والخطر الحقيقيُّ الناجم عن هذه الآراء التفوقِيَّة العرقيَّة المعادية للساميَّة يكمنُ في الأثر الذي قد تسبَّبه لحيواتِ وأرْزاقِ اليهود الأميركيَّين (مؤمنين بتلك

النزعة كانوا أو غيرَ مؤمنين) إنَّ تبنَّها الأميركيُّونَ المعادون للساميَّة وأصدقاؤهم. فبحسب نظرة أصحاب هذه النزعة إلى العالم، وبالتساوق مع الخطاب المعادي للساميَّة، لن يكون اليهودُ متفوقينَ على السكَّانِ الفلسطينيِّين الأصليِّين الذين احتلَّوا أراضيَّهم ويجب أن يواصلوا احتلالهم إيَّها، فحسب، وإنَّما سيُقَال إنَّ اليهودَ سيكونونَ متفوقينَ على مستوى الكرة الأرضيَّة جمعاء. وهكذا يكون التواطؤ بين الصهيونيَّة والالساميَّة قد بلغ أقصى مداه.

أما بصدد المشروع الصهيونيِّ القاضي بتحويل اليهود إلى لاساميين فقد كان ذلك واضحًا منذ وقت مبكرٍ حين قَبِلَ مفكرون يهودٌ من الهاسكالا (فكر النهضة اليهوديَّة الأوروبيَّة في القرن التاسع عشر) أو المسكيلم، أمثالُ

غوردون وسمولنسكن، ممَّن كانوا ذوي تأثيرٍ كبيرٍ في المفكرين الصهاينة، توصيفاتٍ لليهود معاديةً للساميَّة، كالقول إنَّ اليهود «وسخون» و«قَرُوسَطِيُّون» و«خُرافِيُّون» و«متخنَّتون». وقد وَصَفَ هرتزل نفسه اليهودَ الفرنسيِّينَ في يومياته على الشكل التالي: «ألقيتُ نظرةً على يهود باريس فرأيتُ شَبَهًا في وجوههم كأنَّهم ينتمون إلى عائلة واحدة: أنُوفٌ مشوهةٌ وبارزة؛ وعيونٌ مُخْتَلِسَةٌ وماكرة.» (٢) فمن أجل تحويل اليهود من «رجال مخنَّتين» كما عدَّتهم الصهيونيَّة والنزعة المعادية للساميَّة، إلى رجالٍ ذكوريِّين مصمَّمين تبعًا للنموذج المعادي للساميَّة، بنى ماكس نورداو المنظَّرُ الصهيونيُّ عند منعطف القرن العشرين نواديَّ جمنازيَّة للرجال اليهود. (٣) وقد تمَّت هندسة «نوادي باركوخبا» النورداويَّة

١ - في هذا الصدد، انظر: Karen Brodtkin, *How Jews Became White Folks & What That Says About Race in America* (New Brunswick: Rutgers University Press, 1998).

٢ - *The Complete Diaries of Theodor Herzl*, op. cit., Vol. I, p. 11.

٣ - See Max Nordau, "Jewry of Muscle," translation of "Muskeljudentum," in *Juedische Turnzeitung* (June 1903), in Paul Mendes-Flohr and Jehuda Reinharz, eds., *The Jew in the Modern World, A Documentary History* (Oxford: Oxford University Press, 1980), p. 434-435.

ولنظره عامَّة على فكر نورداو السياسي، انظر: George Mosse, *Confronting the Nation, Jewish and Western Nationalism* (Hanover: Brandeis University Press, published by the University Press of New England, 1993), p. 161-175. Also see Paul Breines, *Tough Jews, Political Fantasies and the Moral Dilemma of American Jewry* (New York: Basic Books, 1991).

من أجل «إعادة» الذكور اليهود جسدياً إلى ما كان عليه - زَعْمًا - أسلافهم العبرانيون الذين كانوا محارِبين رياضيين كالإغريق. وقد نجح هذا المشروع إلى حدٍّ أن الجنود الإسرائيليين المنخرطين في إخماد الانتفاضة الفلسطينية الثانية عَثَرُوا على ما يُلْهِمهم في سابقةٍ لاساميّة، هي الهجوم النازي على غيتو وارسو أثناء الحرب العالميّة الثانية. فبحسب الجريدة الإسرائيلية **هارتس**:

«من أجل الإعداد المناسبٍ للحملة القادمة، قال أحدُ الضباط الإسرائيليين العاملين في المناطق [المحتلّة] منذ زمنٍ ليس بالبعيد: 'إنّه من المبرّر، بل من الضروريّ في واقع الأمر، أن نتعلّم من كلّ مصدرٍ يُمكننا التعلّم منه. فإذا كانت المهمّة هي السيطرة على مخيمٍ للاجئين عالي الكثافة، أو السيطرة على الحيّ القديم في نابلس، وإذا كان من واجب قائد المهمّة أن يحاول أن ينفذها من دون ضحايا على الجانبين، فإنّ عليه أولاً أن يحلّل وأن يَسْتَبطنَ دروسَ الحروب السابقة - بما في ذلك، وإنّ بدا ما سأقولُه صادمًا للآذن، كيف حارب الجيش الألمانيّ في غيتو وارسو. لقد أفلح هذا الضابطُ في صدِّم الآخرين

حقًا، وذلك يعود جزئيًّا إلى أنّه لم يكن وحده من اتّبَع هذا الأسلوب: فكثيرٌ من رفاقه يشاطرونه الرأي في أنّه من أجل إنقاذ الإسرائيليين اليوم سيكون من الصواب استخدام المعرفة التي انبثقت من هذه الحرب الرهيبة التي كان ضحاياها من أقربائهم.»<sup>(١)</sup>

ولا شك أنّ كتابة الأرقام على أذرع آلاف الفلسطينيين الذين زجّت بهم إسرائيل في معتقلاتها في الشهر الماضي تعرّز الانطباع بأنّ النظام النازي هو مثالٌ يُحتذى بالنسبة إلى الجيش الإسرائيلي.

أمّا بشأن نزعة التفوق العرقيّ اليهودي على الفلسطينيين فقد باتت هذه جزءًا لا يتجزأ من خطابٍ عالميٍّ عن التمييز العرقيّ اليهودي، اخترق الحقل الأكاديمي نفسه. ويندرج في هذا السياق «سحب» ورقة بحثٍ أساسيةٍ جديدةٍ من مجلةٍ علميةٍ بارزة هي مجلة **هيومان ايميونولوجي** [المناعيّات البشرية]، وتبيّن الورقة أنّ اليهود والفلسطينيين متطابقون تقريبًا من الناحية الجينية (الوراثية). وتتضمّن هذه الورقة، وعنوانها «أصلُ الفلسطينيين وعلاقتهم الجينية بشعوب متوسطةٍ أخرى»، دراسة الاختلافات الوراثية في جينات الأجهزة المنيعية بين شعوب الشرق

الأوسط. وبحسب صحيفة **لندن أوبزيرفر** «فإنّ الفريق، على غرار أبحاثٍ مبكرةٍ، لم يجد أيّ معطيات تدعّم فكرة تميّز الشعب اليهودي جينيًّا عن الشعوب الأخرى في المنطقة. وبهذا يتحدّى الفريق المزاعم التي تقول بأنّ اليهود شعبٌ مميّزٌ ومختارٌ، وبأنّ اليهودية لا يمكن إلاّ أن تورث.» ولكنّ نظرًا لاعتراضات ضخمة، ولتهديداتٍ عدديّةٍ من أعضاء هيئة تحرير المجلة بالاستقالة، ردت رئيسة تحرير المجلة بسرعة قائلة: «لقد تمّ حثُّ الأكاديميين الذين تلقّوا نصحًا من **هيومان ايميونولوجي** على تزيق الصفحات المهينة ورميها.» هنا «ذهل» المؤلّف الرئيسيّ للمقالة، وهو عالم الوراثة الإسباني البروفسور أنطونيو أرنيث - ثيينا. وتضيف **لندن أوبزيرفر**:

«تدعي رئيسة تحرير المجلة نيكول سوسيو - فوكا من جامعة كولومبيا في نيويورك أنّ المقالة أثارت عاصفةً من الاحتجاجات على خطّها السياسي المتطرّف إلى حدٍّ أنّها أُجبرت على إنكارها. فأزيلت المقالة من موقع **هيومان ايميونولوجي** على شبكة الإنترنت، وبعثت رسائلٌ إلى المكتبات والجامعات في العالم أجمع تطلب منها

Amir Oren, "At the Gates of Yassergrad," Ha'Aretz, 25 January 2002. - ١

أن تتجاهل أو الأفضل أن تتنزع انتزاعاً الصفحات المتعلقة بهذا الأمر. وقد صُرفَ أرنيز - قينا من هيئة تحرير المجلة...»<sup>(١)</sup>

### حلول عملية؟

تُصوّر الصحافة الدولية والخطاب الرسمي الإسرائيلي رُفضَ إسرائيل المتواصل لتبديل طبيعتها اليهودية العرقية التفوقية، أو لتبديل سياساتها العنصرية تجاه الشعب الفلسطيني، على أنه دفاع عن مبادئ إسرائيل «الديموقراطية» وعن شعب يهودي توفّف اضطهاده التاريخي لمجرد دخول الصهيونية على الخط. ولكن السبيل الوحيد لكي تكتسب هذه الأقوال أي قوة إنما هو في سياق الالتزام الدولي (اقرأ: الغربي) بالتفوقية اليهودية. فالحجر الأساس في الفكر التفوقي العرقي اليهودي هو الالتزام بإنشاء دولة يهودية يكون لليهود فيها (أكانوا «شعباً مختاراً»، أم أوروبيين يَحْمِلون رسالة

تمدينية،<sup>(٢)</sup> أم مجموعة مضطهدة تاريخياً يُبغى تحريرها أيًا يكن الثمن)<sup>(٣)</sup> حقوق تفوق حقوق الأغيار. إن التفوقية اليهودية هي ما يجعل قضية إسرائيل، بوصف هذه الدولة يهودية بدلاً من أن تكون إسرائيلية، أمراً بالغ التقديس لا يُمكن تبديله لأن ذلك سيكون شأنًا غير عملي. وإن التزام هذه النزعة هو ما يجعل من عودة اللاجئين الفلسطينيين «خطرًا ديموغرافياً» يهدد الغالبية اليهودية في إسرائيل (وهي غالبية باتت كذلك تحديداً لأن الفلسطينيين الذين يسعون اليوم إلى العودة إلى أراضيهم وبيوتهم قد سبق أن طردوا منها أصلاً). وإن ذلك الالتزام هو الذي يواصل شرعنة معاملة الفلسطينيين داخل حدود ١٩٤٨ مواطنين من الدرجة الثالثة. وهو الذي يشرّع استمرار الاحتلال صمّاماً أمام التهديدات الموجهة إلى إسرائيل كدولة عرقية تمييزية يهودية. فإذا أرلنا ذلك الالتزام غداً أسهل بكثير إيجاد حل للصراع الذي فرضته

الصهيونية على الفلسطينيين. فلنختلّ عالمًا لا يعود فيه غالبية اليهود الإسرائيليين ويهود الشتات ومن يدعمهم من الأغيار ملتزمين نزعة التفوق العرقي اليهودي. في هذه الحال ستصبح إسرائيل دولة ثنائية القومية تعامل مواطنيها على قدم المساواة، فتسمح للاجئين الفلسطينيين بالعودة إليها لأنهم لن يُشكلوا خطراً ديموغرافياً على نزعة الهيمنة اليهودية العرقية. ولن يكون على إسرائيل أن تحتل الضفة الغربية وقطاع غزة، لأنها لن تعود إذاً ملتزمة سياسة الاستعمار اليهودي للأرض الفلسطينية أو سياسة سرقة المياه الفلسطينية لأن إسرائيل لن تخشى بعد ذلك على أمنها. وإذاً يستطيع الفلسطينيون أن تكون لهم دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة، أو قد يختارون - جنباً إلى جنب مع الإسرائيليين - دولة ثنائية القومية على كامل حدود فلسطين التاريخية. كيف يتأتى ذلك؟

١ - Robin Mokie, science editor, The Observer, "Journal Axes Gene Research on Jews and Palestinians," 25 November 2001.

٢ - تحدث هرتزل عن مستقبل الدولة اليهودية كـ «جزء من متراس لأوروبا ضد آسيا، وكقاعدة أمامية للحضارة في مواجهة البربرية.» انظر: The Jewish State, op.cit., p. 96.

٣ - عن استخدام الصهيونية للاضطهاد اليهودي، بما في ذلك الهولوكوست، تيريرا لجرائمها، انظر: Joseph Massad, "Palestinians and Jewish History: Recognition or Submission," Journal of Palestine Studies, No. 117, Fall 2000.

وقد أعيد نشر هذا المقال في ملحق جريدة النهار على حلقتين: «الفلسطينيون والمحركة اليهودية: الإيديولوجيا الصهيونية غلبت الحقيقة»، ٨ أيلول ٢٠٠١، و«النكبة الفلسطينية والمحركة اليهودية: الربط المستحيل»، ٦ تشرين الأول ٢٠٠١.

لقد انتهت الهيمنة البيضاء المأسسة في الولايات المتحدة وفي جنوبي أفريقيا حين باتت كلفة المحافظة عليها أبهظ من أن يتحملها العنصريون البيض في كلا البلدين. واليوم لن يجد المرء إلا أقلية ضئيلة من الناس يجهرون بارتياح بأنهم دعموا يوماً نزعة التفوق العرقي الأبيض، مع أنهم سبق أن جهرُوا بذلك وبارتياح كبير قبل بضع سنوات. والحال أن التفوقيين الإسرائيليين، ككأماً ومواطنين، لم يدفعوا كثيراً ثمن احتفاظهم بهذه النزعة. وهم اليوم لا يكتفون بالاحتفاظ بالأرض التي احتلوا بل يواصلون توسيعها، ولا يكتفون بانتزاع ما يقيم أودهم بل ازددهروا على كافة الصعد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

لقد كان على الفلسطينيين أن يدفعوا بأنفسهم، وإلى يومنا هذا، ثمن الحفاظ على التفوقية العرقية اليهودية. ولن يتخلى اليهود الإسرائيليون عن هذه التفوقية إلا بعد جعل كلفتها باهظة جداً. وهذا يكون بمواصلة مقاومة الفلسطينيين داخل إسرائيل وفي المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ لكافة المؤسسات المدنية والعسكرية الداعمة لنزعة الهيمنة العرقية اليهودية، وبممارسة مختلف أشكال الضغوط الدولية بما في ذلك سحب الاستثمارات الدولية من إسرائيل، وفرض حصار اقتصادي عالمي على هذا البلد، ومقاطعته

ثقافياً وسياسياً، وعزله دبلوماسياً على مستوى العالم. عندها، وعندها فقط، سيقنع غالبية الإسرائيليين اليهود بأن كلفة هذه النزعة أبهظ من أن يتحملوها، وسيصبحون أكثر استعداداً للتبرؤ علناً منها، وأكثر راحة في الزعم - شأن نظرائهم البيض في جنوبي أفريقيا والولايات المتحدة - أنهم لم يدعموها يوماً أصلاً.

من المؤسف حقاً أن تكون إسرائيل قد حظيت منذ نهاية السبعينيات بالاعتراف بحقها المزعوم في أن تكون دولة يهودية عنصرية من قبل مصر، ومنذ أوائل التسعينيات من قبل الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية ذاتها. وفي شباط/فبراير الماضي، حظيت إسرائيل باستعداد العالم العربي أجمع، المجتمع في قمته المنعقدة في بيروت، بالاعتراف بحقها المزعوم في أن تكون دولة عنصرية شريطة أن تنسحب من الأراضي الفلسطينية التي احتلتها عام ١٩٦٧.

في هذا السياق السياسي الدولي الراهن، قد يبدو الحل المطروح في هذه الورقة «غير عملي». غير أنه ليس أقل عملياً من «العملية السلمية» المتداوية التي يتواصل تسويقها للعالم وللشعب الفلسطيني بوصفها أمراً عملياً. إن كل الحلول التي تتجاهل الإبقاء على نزعة الهيمنة العرقية

اليهودية في إسرائيل ستفشل لا محالة. وما لم يصبح إلغاء هذه النزعة هو الهدف الرئيسي لـ «عملية سلام» حقيقية، فإن كل الحلول الأخرى لن تؤدي إلا إلى تأبيد الصراع.

## نيويورك